الفصل السابع

معابر الحضارة الإسلامية إلى أوروبا في العصور الوسطى

نتناول في الصفحات التالية المعابر التي من خلالها انتقلت حضارة الإسلام في العصور الوسطى إلى أوربا في الأندلس وصقلية وجنوبي إيطاليا وبلاد الشام في عصر الحروب الصليبية.

والواقع أن دراسة تلك المعابر تفيد تماماً في تفنيد أوهام المتعصبين من أبناء الغرب الذين توهموا أن المسلمين ما قدموا شيئاً لأوروبا، وأن المركزية الأوربية هي صاحبة الفضل الأول والأخير من مرحلة الإبداع الإغريقي إلى إنجازات عصر النهضة وما تلاه حتى عصرنا.

وفي هذا المجال من الممكن الإفادة من شهادات المنصفين والموضوعين من الباحثين الغربيين؛ الذين اعترفوا صراحة بأن أوروبا جلست مجلس التلميذ من أستاذ الشرق الإسلامي صاحب الحضارة الزاهرة.

أما الأندلس فيمكن أن توصف بأنها المعبر الحضاري البارز الذي من خلاله قدم الإسلام نفسه كدين الحضارة لأوروبا العصور الوسطى، خاصة أنها كانت على الأرض الأوربية ذاتها، وقد مكث بها المسلمون ثمانية قرون كاملة، وظهر بها كبار الأعلام في جميع المجالات، ويكفي أن نشير إلى أن مدينة قرطبة في منتصف القرن العاشر الميلادي كانت من الحواضر الكبرى على مستوى العالم، وأضيئت ليلاً في وقت كانت فيه العواصم الأوربية الأخرى لم تصل إلى ذلك المستوى البته.

وقد كان على الأطباء في فرنسا طريقة واحدة في صورة عبور جبال البرانس من أجل التتلمذ على أيدي كبار الأطباء المسلمين في قرطبة وأشبيلية وغيرهما من مدن الأندلس المزدهرة، كذلك وجدت اللغة العربية عشاقاً كثيرين من الأوربيين مع ملاحظة أن اللغة بصفة عامة ما هي إلا وعاء الفكر ولدينا شهادة من جانب الكاتب الإسباني المتعصب الفارو Alvaro الذي قال ما نصه: (لقد نسي المسيحيون حتى لغتهم، ولن تجد بين الألف منهم واحداً

يستطيع كتابه خطاب باللغة اللاتنية؛ بينما نجد بينهم عدداً كبيراً لا يحصى يتكلم العربية بطلاقة ويقرض الشعر أحسن من العرب أنفسهم[1].

ويلاحظ أن شعر الموشحات الأندلسية ترك أثره على شعر التروبادور Trupador الذي وجد في فرنسا، ولا يمكن دراسة الشعر المذكور دون إدراك تأثير الموشحات الأندلسية فيه. من جهة أخرى قام الملك الفونسو العاشر الملقب بالحكيم (Alfonso X El Sabio 1248-1252م) برعاية حركة الترجمة من خلال مدرسة طليطلة التي عمل فيها كبار المترجمين وترجمت من خلالها المؤلفات العربية إلى اللاتينية.

ومن كبار المترجمين الذين برزوا في الأندلس نذكر جيرارد الكريموني (١١١٤- ١١٨٧م)، ويقال أنه ترجم (٧١) كتاباً عربياً في مجالات علمية مختلفة ومن أمثلتها:

١. كتاب الخوارزمي: الحساب.
٢. كتاب الفرغاني: الحركات السماوية وجوامع علم النجوم.
٣. كتاب أبي علي خياط: أصل الكواكب.
٤. الكندي: بعض رسائله.
٥. كتاب ابي معشر: المدخل إلى علم هيئة الأفلاك.
٦. كتاب إبن الداية: شرح كتاب بطليموس عن الفلك.
٧. كتاب للبتاني عن الفلك.
٨. كتاب لثابت بن غرة عن الفلك.
٩. كتاب القابسي عن المدخل إلى صناعة أحكام النجوم.
١٠. كتاب مسلمة بن أحمد المجريطي عن الفلك.
١١. كتاب قسطا بن لوقا عن الفصل بين الروح والنفس.
١٢. كتاب الفارابي: إحصاء العلوم.

---

(١) انظر مبحث موقف الحضارة الإسلامية من الحضارات الأخرى.

١٣. قسم من كتاب ابن سينا: الشفاء.

١٤. كتاب ابن غبيرول: ينبوع الحياة.

١٥. كتاب الغزالي: مقاصد الفلاسفة.

ولا نغفل كذلك دور بارزا قام به يوحنا الاشبيلي John of Seville (١١٢٦-١١٥١م)، وقد ترجم عدداً من المؤلفات يمكن ذكر أغلبها في الآتي:

١. كتاب الخوارزمي : الحساب.

٢. رسائل مختلفة في الفلك والتنجيم ألفها ما شاء الله (ت٨٠٠م).

٣. كتاب في الحركات السماوية وجوامع علم النجوم للفرغاني.

٤. أبو علي الخياط: رسالة في الفلك هي المسائل في أحكام النجوم.

٥. عدد رسائل الكندى.

٦. مؤلفات أبو معشر في الفلك.

٧. أحكام النجوم لابن الفروخان.

٨. رسالة في التنجيم لأحمد بن يوسف بن الداية.

٩. الزيج للبتاني.

١٠. دلائل الفلك لثابت بن قرة.

١١. كتاب المدخل على صناعة أحكام النجوم ومؤلفات أخرى في نظام الكواكب السيارة للقبيصي.

١٢. الزيج لمسلمة بن أحمد المجريطي

١٣. كتاب إحصاء العلوم للفارابي.

١٤. ترجمة جزء من كتاب الشفاء لابن سيناء.

١٥. مقاصد الفلاسفة للغزالي.

ويلاحظ اشتراك مترجم آخر هو دو مينكو كوديسالفو (١٢م) هو اسباني في الترجمة مع يوحنا الاشبيلي.

وهكذا كانت الأندلس معبراً أساسياً من معابر الحضارة الإسلامية إلى أوروبا، لذا لا عجب إذا وجدنا كاتباً إسبانياً معاصراً يقرر أن العرب لم يغزوها؛ بل قدموا إليها كمنقذين وكرسل حضارة، وذلك هو أجناسيو اولاي فكانت كلمة حق من رجل صادق مع نفسه ومع منطق التاريخ.

أما صقلية Sicily فقد عُدت هي وجنوبي إيطاليا من المعابر الأساسية للحضارة الإسلامية إلى أوروبا، ويلاحظ أنهم مكثوا فيها خلال المرحلة بين عامي (٨٣١- ١٠٩٢م)، وفيما بعد استولى عليها النورمان، ومن أسباب ذلك: تصارع القوى الإسلامية مع بعضها البعض، وهي آفة واضحة المعالم خلال مرحلة العصور الوسطى وحتى بعد ذلك !!

وقد تولى حكم صقلية روجر الأول Roger (١٠٦١- ١١٠١م)، وكان متسامحاً بصفة عامة مع المسلمين، ومن بعده كان روجر الثاني RogerII (١١٠١- ١١٥٤م) وكان منبهراً بالحضارة الإسلامية، وقد وصفه المستشرق الإيطالي البارز أماري Amari بأنه سلطان معمد، واعتقد الكثيرون بالفعل أنه سلطان عربي حمل تاجاً مثل ملوك الإفرنج.

وقد اتخذ لقباً إسلامياً فسمى نفسه المعتز بالله، وقام بسك عملة باللغة العربية إلى جانب العملات المكتوبة باللاتينية واليونانية، كذلك أصدر قراراته باللغات الثلاثة المذكورة، كما وقع في المعاملات الصادرة عن ديوانه بعبارات إسلامية مثل: (الحمد لله حق حمده) (الحمد لله وشكراً لأنعمه)، ولا ريب في أن ذلك تعبير صادق وحي ذكره التاريخ للملك الأوروبي الذي تأثر بالحضارة الإسلامية من رأسه حتى أخمص قدميه.

ويذكر له استقدامه الإدريسي ابن مدينة سبتة المغربية سالفة الذكر من قبل؛ حيث ألَّف في بلاطه كتابه الشهير (نزهة المشتاق في اختراق الآفاق)، ولا ريب في أنه بدون معاونة ذلك الحاكم الغربي الشرقي في الحين نفسه ما كان من الممكن للإدريسي أن يبدع بمثل تلك الصورة؛ خاصة أنه وضع إمكانات دولة النورمان في صقليه تحت تصرفه.

ومن الأمور المضحكة والمبكية في الحين نفسه أن رئيس وزراء إيطاليا بير لسكوني بعد أحداث ١١ سبتمبر ٢٠٠١م المثيرة للجدل التي أُتهم المسلمين بالقيام بها؛ أدلى بحديث قال فيه: إن المسلمين لم يقدموا شيئاً للإنسانية على الصعيد الحضاري، وهو بالتالي لا يعرف ألف باء تاريخ إيطاليا ذاتها؛ حيث كتب على أرض صقلية العبقري المسلم الإدريسي كتابه سالف الذكر فدخل التاريخ من أوسع أبوابه، وكذلك كان شأن روجر الثاني، ويفتخر المستشرقون الإيطاليون مثل: ديلا فيلا وجيوفاني اومان واماري بأن ذلك الكتاب الفذ تم تأليفه في صقلية، من ناحية أخرى تولى فردريك الثاني FrederikII (١١٩٨- ١٢٥٠م) وهو ابن هنرى السادس حكم الإمبراطورية الرومانية المقدسة في ألمانيا ومملكة الصقليتين: وهما نابولي Napoli وصقلية وبذلك انتقل الحكم في صقلية من الأسرة النورمانية إلى أسرة الهوهنشتاوفن الألمانية.

والأمر المؤكد أن ذلك الإمبراطور كان معجبا بالحضارة الإسلامية التي بهرته، وقد أتقن لغة الضاد وعدة لغات أخرى، وعقد أواصر الصداقة مع السلطان الكامل الأيوبي بل تم تبادل السفارات بين الطرفين، مع ملاحظة أن ذلك الإمبراطور كان سياسياً داهية وتمكن من انتزاع انتصار دبلوماسي غير مسبوق من خلال إتفاقية يافا المشبوهة عام ١٢٢٩م مع ذلك الحاكم الأيوبي قليل الخبرة السياسية والمتفرد بالرأى على نحو أضر بالصالح الإسلامي العام، ويلاحظ أنه بمقتضي تلك الاتفاقية استعاد الصليبيون تحت قيادته بيت المقدس دونما قتال.

ومن جهة أخرى نجد أن ابنه غير الشرعي منفرد Monfred تأثر هو الآخر بحضارة الإسلام، وقد اتسمت علاقته بالمسلمين بالمودة وحدثت سفارة بينه وبين الظاهر بيبرس (١٢٦٠- ١٢٧٧م) أشار إليها ابن واصل في كتابه (مفرج الكروب).

وبصفة عامة كانت اللغة العربية لها شأنها في التأثير في صقلية حيث دخلت اللغتين اللاتينية واليونانية، ومن أمثلة الكلمات ذات الأصل العربي:

الفنـدق Fondaco ديـوان Douane (Dohana) دفـتر Deftari رحبـة Rahbo مخزن Magazin راحة اليد (مضـرب الكـرة) Rakete حـرارة Carara السيد Cid مسـكين Mesquino القصـر Cassaro النـاعورة Noria القبـة La cuba العزيزة Alziza المحتسب Almotaceb السكة Zecca خسارة Cassaro .

ولا ريب أن تلك الكلمات السابقة وهي مجرد أمثلة تعكس لنـا قـدرة لغة القـرآن الكـريم علـى غـزو اللغـات الأوربيـة الأخـرى في عقـر دارهـا علـى نحـو عكس تقدمها.

ويشير المؤرخ اللبنـاني القـدير حسـان حـلاق إلى أن بـاليرمو حاضـرة صقلية احتوت على مدرسة للترجمة من لغة الضاد إلى اللغتين اليونانية واللاتينيـة علـى شـاكلة مدرسـة طليطلـة في القـرن (١٢م)، ووجـدت علاقـات بـين المدرسـتين، ومـن أولئـك الـذين تـرددوا علـى مدرسـة بـاليرمو مـن مدرسـة طليطلـة العـالم الأسكتلندي ميخائيل سكوت scott، وهو الذي قام بترجمة أعمـال لأرسـطو وكذلك شروح لابن رشد.

كما يذكـر في إسهامات مدرسة باليرمو ترجمة مؤلفات كتب ابـن سـينا وكـذلك الـرازي في الطـب، ومـن كبـار المترجمـين بهـا اوجينـوس البـاليرمي Eugene of Palermo وليوناردو البيزي Leonardo of Pisa .

وهكـذا يتأكـد لنـا أن الحضـارة الإسـلامية كـان لهـا دورهـا البـارز في صقلية وجنوبي إيطاليا، وأن المسلمين عندما فتحوا تلك المناطق كانوا فاتحي حضارة ولم يكونوا غزاة.

أمـا فيمـا يتصـل بتـاريخ الحـروب الصـليبية فنجـد أن الصـليبيين أقـاموا في بلاد الشام قرابة القرنين من عمـر الزمـان، وعنـدما قـدموا توهمـوا أنهـم أقـوى من أعدائهم المسلمين؛ إلا أن مفاجأة كبرى كانت تنتظرهم من خلال ظاهرة التمشـرق، ومـع طـول إقـامتهم هنـاك تعلمـوا مـن المسـلمين العديـد مـن العـادات والتقاليـد بـل وترجمـوا بعـض مؤلفـاتهم لا سـيما الطبيـة، ويتأكـد لنـا مقولـة عبقـري تـونس خالـد الـذكر ابـن خلـدون (ت١٤٠٥م) أن المغلـوب مولـع بتقليـد الغالـب لا تنطبـق علـى وضـع بـلاد الشـام عصـر الصـليبيات؛ لأننـا أمـام حالـة

حضارية فريدة في عالم العصور الوسطي؛ حيث أن المغلوب كان (عسكرياً) خاصة خلال العقود الأربعة الأولى من عمر الحركة الصليبية تمكن من هزيمة الغزاة بسلاح الحضارة الفتاك، وهو سلاح أدوم من الأسلحة المادية التقليدية لأن الأجيال تتوارثه.

ومن الواقع أن هناك العديد من مظاهر تأثر حضارة الإسلام في أوروبا خلال العصور الوسطي، وعلى المستوى السياسي نجد أن ملوك انجلترا وفرنسا كانوا من أوائل المتمردين على الكنيسة، وهي البلاد التي شارك ملوكها في الصراع ضد المسلمين في عصر الصليبيات، وحتى على المستوى الدستوري يرى البعض أن دستور انجلترا يعد أثراً من الآثار الناجمة عن الحروب الصليبية مع عدم إغفال التطور الطبيعي للتاريخ الدستوري لانجلترا ذاتها، وهو عنصر على قدر كبير من الأهمية.

ويلاحظ أنه عندما عاد الملك ريتشارد قلب الأسد Richard I Lionhearted (١١٨٩- ١١٩٩م) إلى انجلترا بعد انتهاء دوره في بلاد الشام وتجربة الأسر المريرة التي مر بها، طلب منه مرافقوه تطوير بلاده لتواكب حياة الشرق، وقد بدأ الإنجليز يطالبون بحياة ذات اتجاه يضمن حريتهم، وهكذا فإنه في عهد أخيه الملك يوحنا John (١١٩٩- ١٢١٦م) قامت انتفاضة تطالب بوضع دستور للبلاد، وقد أرغم على توقيع ما عرف بالماجنا كارت Magna Charta أو العهد الأعظم، وقد تكون من (٦٣) مادة انقسمت بدورها إلى أربعة مجموعات تناولت: العلاقة بين الكنيسة والدولة، والعلاقات الإقطاعية بين الملك وأتباعه، وكذلك الإجراءات الحكومية الملكية في القضايا المدنية فيما بين الملك ورعاياه، كذلك تناولت حقوق البارونات.

أما على الصعيد الفكري فيلاحظ أن هناك اتجاهاً لدى بعض الباحثين يرى أن الصليبيين قدموا إلى المنطقة كغزاة، ولم يكن هناك ما يجعلهم يتأثرون بحياة المسلمين الفكرية في بلاد الشام، ثم ينقلونها من بعد ذلك إلى الغرب الأوروبي بصورة أو بأخرى، بيد أن وقائع التاريخ ذاتها تفند ذلك التوجه.

والواقع أن تجربة الحروب الصليبية واتصال الغزاة بالحضارة الإسلامية تركت تأثيرها عليهم على مستوى العلوم الإنسانية وكذلك العلوم العملية.

أما أثر الحضارة الإسلامية في أوروبا من الناحية اللغوية فنلاحظ من خلال دخول العديد من المفردات العربية إلى اللغات الأوربية ومن خلال مرحلة الحروب الصليبية ومن أمثلتها:

- (جلاب) هو شراب من بعض الأعشاب العطرية ونجدها في الانجليز Julep وفي الفرنسية Julep وفي الإسبانية والبرتغالية Julepe وفي الإيطالية Qiulebbe .
- كلمة (سمت) نجدها في الإنجليزية Syrup وفي الفرنسية Sirpo وفي الإيطالية Sciroppo .
- كلمة (عود) نجدها في الإسبانية Laud وفي البرتغالية Alaude .
- كلمة (جرة) نجدها في الانجليزية Jar وفي الفرنسية Jarue وفي الإسبانية JarroAliara وفي البرتغالية Zarro Jarro وفي الإيطالية Crarro Giaro, .

وهناك العديد من الأمثلة لا يتسع المقام هنا لإيرادها على نحو مفصل بصورة عكست أن لغة الضاد - لغة القرآن الخالدة - غزت الأوربيين في عقر دارهم من خلال اللغات التي تأثرت بها.

أما على مستوى الأدب شعراً ونثراً فنلاحظ أن الحروب الصليبية ومن خلال الشعر العربي أثرت في تطعيم شعر التروبادور Trupador، وهو الشعر الغنائي في جنوبي فرنسا الذي ظهر هناك في أخريات القرن الحادي عشر الميلادي، وقد تطور على يدي وليم العاشر دوق اكويتاين William X of Aquiaine (١٠٧٧- ١١٢٧م)، وقد اشترك في الحملة الصليبية الأولى مع غيره من الشعراء، وذلك لمدة عام، ولا ريب أن تأثره بالحضارة الإسلامية في مظاهرها الأدبية على نحو عمق حسه الشعري، ومن المهم هنا ملاحظة أن أشعاره لم يتبق منها سوى إحدى عشرة قصيدة ست منها حوت شعراً خليعاً والخمس الأخريات تناولت الحب العذري العفيف.

زد على ذلك أثرت الحضارة الإسلامية من خلال الحروب الصليبية في الجانب القصصي لدى الأوربيين، ولا أدل على ذلك مما تردد لدى البعض من أن أسقف عكا جاك دي فترى Jacques de Vitry (١١٧٠- ١٢٤٠م) كان يروي مقتطفات من (ألف ليلة وليلة The Arabian Nights، Thousand night and one night) لبعض عناصر الصليبيين الذين قدموا إلى بلاد الشام، ومن بعد عودتهم إلى بلادهم قاموا بروايتها على أصدقائهم، وقد تم نشر تلك القصص من خلال مجموعة قصصية بعنوان الرومان Gesta Romanorum وذلك في القرن الرابع عشر الميلادي، وهو القرن التالي مباشرة على القرن الأخير في تاريخ الصليبيين في بلاد الشام، ومن خلالها ظهرت في أوروبا قصص مشابهة مثل الديكاميرون DecameronII التي ألفها الأديب الإيطالي جيوفاني بوكاشيو Giovanni Bokaccio (١٣١٣- ١٣٣٧م)، ويلاحظ أن كلمة الديكاميرون تعني الليالي العشر، وقد ساقها المؤلف على ألسنة عشر شخصيات سبعة من الرجال وثلاثة من النساء كانوا قد فروا من الطاعون الذي تفشى في إيطاليا وفي غيرها من الأقطار عام ١٣٤٨م، وعرف بالفناء الكبير Black Death، وتمتاز تلك القصص بالجرأة والحديث المكشوف عن الحب الحسي بتوجهه المتحرر، وقد تمت مهاجمة رجال الدين بعنف وسخرية شديدة، وأسلوب بوكاشيو اتسم بالحيوية والبساطة، كما أنه ألَّف كتاباً آخر اسمه الكرباج Corbaccio II، وفيه يتحدث عن مسالب النساء.

ومن يطالع قصص بوكاشيو يدرك الشبة بينها وبين قصة الوزراء السبعة في ألف ليلة وليلة، أما تناوله لمثالب النساء فقد تأثر فيه بما تردد في الشرق والأندلس عن ذلك التوجه نفسه.

والجدير بالذكر أن الأوربيين فيما بعد عندما تمت ترجمة ألف ليلة وليلة إلى الفرنسية من خلال جهد المستشرق جالان Galland (١٦٤٦- ١٧١٥م) أحدث ذلك ما يشبه البعث المعرفي في أذهانهم؛ إذ فتحت بوابة سحرية اكتشف الغرب من خلالها عالم الشرق الساحر الذي التقت فيه الحقيقة بالأسطورة، وبالتالي أحدثت أثراً لا يمحى، ومن المقرر أن أثرت في الإنتاج

الأدبي الأوربي حتى العصر الحديث؛ نظراً لأن الظاهرة الإبداعية الأدبية لم تعرف القيود أو الحدود السياسية أو الدينية أو المذهبية.

ومن جهة أخرى تأكد للدارسين أن دانتي اليجيري Dante (١٢٦٥-١٣٢١م) أديب إيطاليا البارز في عمله ذائع الصيت الكوميديا الإلهية The Divine Comody تأثر تأثيراً واضحاً برسالة الغفران لأديب معرة النعمان أبي العلاء المعري، وكان المستشرق الراهب آسين بلاسيوس Asin Palacios قد فجر مفاجأة علمية كبرى عام ١٩١٩م عندما أكد ذلك الأمر في أحد مؤتمرات الاستشراق .

وهناك من يرى على الرغم من الحجج والبراهين التي أوردها آسين بلاسيوس دعما لنظريته؛ إلا أن بعض الشكوك كانت لا تزال لدى بعض الباحثين خاصة من الإيطاليين، حتى كان عام ١٩٤٩م حيث قيلت الكلمة الأخيرة عندما عثر الباحث الإسباني خوسيه مونوس سندنيو Jose Munoz Sendino على المخطوطات القشتالية (الإسبانية) واللاتينية والفرنسية لترجمة قصة المعراج الإسلامية العربية، وقد كان الفونسو الحكيم Alfonso El Sabio قد أمر بترجمتها إلى تلك اللغات نقلاً عن الأصل العربي.

من ناحية أخرى نجد أن مقامات الحريرى حققت انتشاراً واسعاً في العالم الإسلامي؛ بل وامتد تأثيرها خارج حدوده، ومما يلفت الانتباه الشبة الكبير الذي يلاحظه المتخصصون في الأدب المقارن بين ذلك الأثر الأدبي البارز والطراز المعروف في الأدب الإسباني باسم قصص الصعاليك La novella picaresca على نحو دل على قدرة الأدب العربي على التأثير في الآداب العالمية الأخرى.

والأمر المؤكد أن الأمثلة سالفة الذكر تدل على حيوية اللغة العربية وآدابها التي لم تكن منعزلة بل فاعلة ومؤثرة، وبالتالي يتضح لنا أن الفتوحات العربية الإسلامية لأوروبا لم تكن ذات طابع عسكري بحت بل حملت معها الآثار الحضارية العميقة.

وعلى مستوى الكتابة التاريخية نجد أن الحضارة الإسلامية أثرت في إحداث نقلة نوعية غير مسبوقة في تاريخ الكتابة التاريخية في الغرب الأوروبي

فيلاحظ هنا أن الحروب الصليبية أفرزت لنا المؤرخ الصليبي البارز وليم الصوري William of Tyre الذي ألف كتابه الفريد (تاريخ الأعمال التي جرت فيما وراء البحر) History rerum in partibus Transmarinis gestarum وبالإنجليزية History of deeds done beyond the sea .

وقد عمل رئيساً لأساقفة صور Tyre وأجاد عدة لغات مثل: اليونانية واللاتينية وكذلك العربية، وطالع من خلالها المؤلفات التاريخية العربية مع عدم إغفال التأثير العيمق الذي أحدثته بعثته إلى الغرب الأوروبي على مدى عشرين عاماً (١١٤٢- ١١٦٢م)؛ حيث كانت تموج بما عرف بنهضة القرن الثاني عشر الميلادي، وهي التي قامت على أساس ترجمة علوم المسلمين وهي أخطر النهضات في تاريخ أوروبا العصور الوسطي.

وبعد الاغتراب طلباً للعلم والتأثر بحضارة الإسلام في غربي البحر المتوسط شد ذلك المؤرخ البارز رحاله صوب البحر الزاخر بتفاعلات الأفكار وقوى السياسة والاقتصاد، وقدم إلى مملكة بيت المقدس الصليبية في عهد آخر ملوكها البارزين وهو عموري الأول Amalric I (١١٦٣- ١١٧٤م) حيث طلب منه تأليف كتاب يتناول فيه تاريخ الصليبيين في الشرق فكان كتابه مع ملاحظة أنه ألف كتاباً عن تاريخ الأمراء الشرقيين فُقد ولم يصل إلينا.

والجدير بالذكر أن ذلك المؤرخ الصليبي اتسم تاريخه بالروح الناقدة والبصيرة النافذة، فلا عجب أن وجدناه ينتقد المملكة الصليبية لعدم التزامها بالاتفاقات الدبلوماسية التي عقدتها مع المسلمين في بعض الأحيان، كذ لك وجه انتقادا إلى هيئة فرسان المعبد Templars الذين زاد نفوذهم على نحو جعلهم أشبة بدولة داخل الدولة الصليبية Emperia in Emperio، كما عمل على نقد الجيل الصليبي الجديد على اعتبار أنه كان جيلاً ضعيفاً لم تتوفر فيه مقومات الجيل الأول الذى أسس الإمارات الصليبية في بلاد الشام والجزيرة الفراتية.